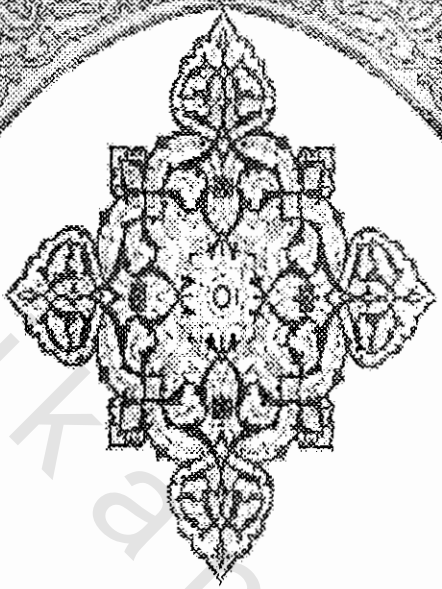

سورة فصلت

obeikandl.com

﴿ سورة فصلت ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥ ﴾

هو حجاب المعرفة، ضن به الحق سبحانه عليهم أن يعرفوه وأن يفقهوه، فلم يتعرفوا على الحقيقة المحمدية حق التعرف حتى تعرفهم على الحق سبحانه، كما سئل أحد العارفين عن تكرم الحق سبحانه وتعالى على كل من رأى الذات المحمدية بالإيمان به وعن سر إعراض البعض مثل أبى جهل وغيره ؟

فأجاب ذلك العارف بأن أبا جهل لم ير شخص رسول الله ﷺ فيه وإنما رأى يتيم أبى طالب.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ﴾

قربهم إليه ﷺ بالبشرية لأجل إلغاء التمايز بينه ﷺ وبين من يدعوهم إلى الله عز وجل.

وإنما أخر الصفة التفضيلية ــ وهى أنه يوحى إليه ــ لدخوله عليهم ﷺ بالتواضع وعدم التفريق فى البشرية، فكأنه ﷺ يقول لهم إنما أنا واحد منكم فى اشتراكى معكم فى البشرية ولكن الله من علىَّ بالوحى.

﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ ﴾

وهو إتيان تنفيذ لما اقتضته المشيئة من تلك الأعيان ــ أقصد السموات والأرض ــ فإن كل ما فى الوجود لا يخرج عن مراد

الحق سبحانه ولو قيد أنملة، فما أمرهما أن يأتياه بالطوع والكراهية إلا لما اقتضاه منهما، وهذا هو توحيد العارفين وعقيدة خواص الخواص، والكلام فيها لا يستقيم مع أهل الظاهر، والسكوت فى هذا المقام أفضل، والتكتم أصون، والآية من المتشابه لمن فهمها.

فمن أين يأمرهما بالتخيير فى الإتيان ــ طوعاً أو كرهاً ــ وهو يريد منهما ما اقتضته المشيئة وما أعده المراد من تلك الأعيان.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

شهد عليهم جزء منهم وهو أكبر حجة عليهم، وهو آخر ما كانوا يتوقعونه من الإعجاز الإلهى أن يشهد عليهم جزء من جسدهم ضدهم.

وهو ليس بعزيز ولا بعجيب، بل هو فى هذه الدار لأوليائه سبحانه وتعالى، كان من أولياء الله من يدخل عليه الزانى فيعرفه بعلامة فى أنفه، وحكى عن سيدنا عثمان بن عفان ﷺ أنه دخل عليه رجل وقد نظر إلى امرأة فى الطريق فقال: يدخل أحدكم علىَّ وفى عينيه أثر الزنا.

فهؤلاء فضحتهم جوارحهم وتكلمت عنهم فى هذه الدار وناب فى كشف هذه الفضيحة أولياء الله عن الحق عز وجل.

وهناك دائرة أوسع فى تسخير الجوارح فى أغراض شتى كالكرامة كمن يتطور جسده فى الكون، وكمن يؤدب من أمامه بعلم الجوارح، وفيه حكاية عجيبة رويناها عن أحد العارفات بالله وكانت جميلة، فأتاها أحد الأشخاص الغرباء وراودها عن نفسها فطاوعته إلى ذلك فلما أرادا أن يلمسها ومد يده إلى ثديها وجده حجراً جلموداً، وهكذا

كلما أراد أن يمد يده إلى عضو من أعضائها وجده حجراً جلموداً، فعلم أنها من العارفات بربها، فاقشعر جسده وتاب على يديها وصار من مريديها.

ومن نادرات هذا الباب فى علم تسخير الجوارح استطاله يد الحلاج فى السجن وإتيانه بفوطة بعد وضوئه كانت بعيدة عنه بمراحل طويلة.

ومن نادرات هذا الباب أن يخطو الولى بجارحة الرجل أو يرمل رملات قليلة فيجد نفسه قد انتقل من قطر إلى قطر.

﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

ومن أولياء الله من ينوب عن الحق فينطق له كل شىء، وهذا كمن يكلم الحيوانات والطيور ويفهم لغتها، وفيه معجزة نبينا ﷺ لما خاطبه الجذع وحن إليه واحتضنه وصار يئن فى حضنه كأنين الطفل، وورد فى الحديث عنه ﷺ أنه قال: ((**إنى لأعرف حجراً كان يكلمنى قبل بعثتى**)).

ومنه حديث الجمل والضب معه ﷺ وقد صنف فى ذلك أحد الحفاظ كتاباً سماه " النطق المفهوم لأهل السمت المعلوم "وهو عندى فى نطق الجمادات والحيوانات والطيور والهوام ،أقول وعجائب سليمان فى ذلك كثيرة كمخاطبة الهدهد والنمل وخلاف ذلك له.

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

فالفاسد أراده الله فاسدا، والصالح أراده الله صالحاً وهو سبحانه لا يسئل عما يفعل وهم يسألون، كما ورد الحديث القدسى بذلك " قال – أى الحق سبحانه – ((خلقت خلقاً فقلت هؤلاء للجنة وخلقت خلقاً فقلت هؤلاء للنار)) وهذه عقيدة خواص الخواص، فالكل سائرون فى طريق القهر وعدم الاختيار وتنفيذ مراد الحق منهم وفيهم، فالكافر أراده الله هكذا والمؤمن أراده الله هكذا، وهذه هى عقيدة كبار الصوفية، إذ ليس بكثير عليه سبحانه أن يفعل فى ملكه ما يشاء، وهو ليس بظلم عليه سبحانه إذ هو منزه عن ظلم مخلوق، ولكن الحجة فى ذلك على أصل الطينة، وقد لخص أبو القاسم ﷺ القضية فى قوله:

((**الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام**))

فالجاهلية والإسلام لا تغيران معدن الشخص، وإنما العلة فى الطينة فافهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

وقد أثار الإمام النبهانى فى كتابه جامع كرامات الأولياء قضية نزول الملائكة على الأولياء فاحتج بهذه الآية، وقال عن أحد شيوخه محدثاً أنه اهتم بموضوع معين فنزل عليه جبريل وطمأنه.

ثم قال الإمام البنهانى: ويحتمل أن يكون جبريل آخر غير جبريل الوحى، ويحتمل أن يكون هو، ثم قال: إن هذا ليس ببعيد فقد صدقه القرآن وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾.

أقول: وقد ورد فى الحديث الشريف ما يصدق ذلك عنه ﷺ أنه قال: ((ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا غشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده)).

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

حكى الإمام الشعرانى فى كتابه اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر نقلاً عن الشيخ الأكبر فى الفتوحات المكية أن الوسوسة جائزة فى حق الأنبياء، لكن لا يجوز العمل بها، وهم فى هذا خلافاً لغيرهم من الأولياء إذ يجوز للولى أن يوسوس له الشيطان ويعمل بوسوسته، كما حكى عن الجنيد ﷺ عندما سُئل: أيزنى الولى ؟ فقال: نعم وكان أمر الله قدراً مقدوراً، لكن حكى عن شيخنا سيدى أحمد التجانى ﷺ فى كتاب جواهر المعانى أن القطب له عصمة كعصمته النبى.

أقول: وهى حقيقة فيجب أن يكون له ذلك، إذ هو خليفة الله فى أرضه، ولا تجوز فى حقه النقائص النفسية والدسائس الباطنية.

﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

وبرغم ذلك فإن الإنسان بنسيانه لربه تارة وذكره لربه تارة هو أفضل ممن يسبحون لربهم بالليل والنهار وهم لا يسأمون.

أقول: وذلك لقيامه فى مقام التكاليف والأعباء، التى كلفه بها خالقه عز وجل، فإن من يسبح ربه من الملائكة بالليل والنهار معان على

ذلك، بخلاف من وضع فى طريقه العوائق وشحن دربه بصنوف الاختبارات والابتلاءات.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

والأرض ههنا هى ذات العارف المتعطشة لمزيد من الفيوضات والواردات الإلهية، وعُبر عن ذلك بالخشوع أى الخضوع للتلقى عن الله مما يطرحه فيها من أنواره وأسراره ومعارفه اللدنية.

ثم قال: فإذا أنزلنا عليها الماء أى عصارة المعارف الإلهية وشموس المكاشفات الربانية اهتزت أى أشرقت، ورقصت وفرحت، مما أصابها من العطاءات الهابطة عليها من حضرة القدس الأعظم، وربت أى كبرت وازدادت معرفة بربها وبخالقها عز وجل.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴿٤٢﴾ ﴾

أى السادة العارفون بربهم.

﴿ فِى ٱلْءَافَاقِ ﴿٤٣﴾ ﴾

أى فى أرجاء الكون وفى ملكوت السموات والأرض يقول سبحانه معبراً عن هذا المقام: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴿٤٣﴾ ﴾

حتى يتحققوا بها تيقناً وتمكناً وتدرجاً فى المعرفة الباطنية النفسية الشهودية، والتى لا مزيد للريب والشك بعدها ولو قيد أنملة، وهذا

أقواه ما يكون فى نفس العارف، كتدرجه من علم اليقين حتى يصل إلى حق اليقين، يقول الإمام الكامل سيد القوم أبو بكر الصديق ﷺ: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً.

﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴿٥٣﴾ ﴾

أى ما سمعوه من علم الحقائق يتبينوه كشفاً وشهوداً غير محتمل لريب ولا شك، ومثال ذلك أن العارف ربما سمع عن بعض الأولياء الذين يرتقون حول العرش، فلا تزال همة العارف تطلب ذلك حتى تتبينه وتتحققه كشفاً ثبوتياً شهودياً وتحققياً فافهم.